

تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس

تأليف : حسين مؤنس

نشر : معهد الدراسات الإسلامية

مدريد 1386/1967

تقديم : صالح المغيربي

الكتاب مجموعة من الفصول تعقب فيها صاحبها تعقّباً تاريخياً مادّة الجغرافية في الأندلس من خلال كتب الجغرافية والرحلات والتاريخ والأدب والمعاجم التي أمكنه الاطلاع عليها .

في الفصل الأوّل حدّدت أصول التّأليف الجغرافي فأرجعت إلى ثلاثة أسس :

— أولاً : إن الجغرافية والتاريخ عند الأندلسيين والمسلمين عامة فرعان متلازمان من شجرة المعارف التي كانت تسمى الأدب (1) وهذا ما يفسّر تداخل المادّتين عند العذري والبكري في مسالكه مثلاً .

— ثانيا : إن تاريخ هروشيئش (2) المنقول إلى العربية قد اتخذ مثالا يحتذى في التقديم للتاريخ بالجغرافية كما هو الشأن في تاريخ الرازي (3) والإحاطة لابن الخطيب .

— ثالثا : إن غاية ما نجده من تأثر الجغرافيين الأندلسيين بالتقسيم البطليموسي هو إجماعهم على أن بلادهم تقع في الإقليم الرابع والخامس والسادس وهذا يفسر خطأ جغرافيتهم القائم غالبا على الرحلة والمعاناة ويعلّل انتماءها إلى فنّ « البلدان والمسالك » وبُعدها عن الاتجاه الفلكي .

وهذا الأساس الأخير من حيث المنهجية غريب إذ سبق التحليل فوجهه وجهة معينة تعنى خاصة بالجغرافية الطبيعية والإدارية والاقتصادية والبشرية بعد التمهيد انطلق حسين مؤنس يستعرض كلّ من ألفوا في الجغرافية فأورد تراجعهم (4) وعالج مشكل مؤلفاتهم إن اقتضى الأمر ذلك (5) ووضّح منهجهم وحصر نصيبهم من الابتكار أو النقل . وقامت دراسة المؤلفات إمّا على ذكر نماذج منها والتعليق عليها وإمّا على تحليل إجمالي . ولما كان استعراض المؤلفين تاريخياً يصعب معه تقديم صلب الكتاب فضلنا إدراجهم في أبواب تعتبر ميادينهم .

(1) باب الجغرافيين : في هذا الباب كانت أهمّ النتائج التي وصل إليها المؤلف في نظرنا هي تقسيم العذري الكنسي لا البطليموسي وتحديد دوره في توطيد الجغرافية الإدارية والاقتصادية كما يتجلى ذلك في القطعة الباقية من كتابه « نظام المرجان في المسالك والممالك » ونزعة البكري إلى الوصف

(2) عن ترجمة الكتاب ودور قاسم بن أصبغ البياني في الترجمة ص 30 - 54

(3) لم يبق من هذا التاريخ إلا قسمه الأول الجغرافي في وصف الأندلس ص 59

(4) في تدقيق التراجم أنظر مثلا ما قاله في تعليل اتصال الادريسي بجرار وهو تعليل معقول ص 183 - 190

(5) أنظر مثلا مشكل مخطوطات « بسط الأرض » ونسبة الكتاب لعلي بن سعيد ص 495 - 497

الشامل في القطعة المطبوعة الخاصة بالمغرب وفهم الإدريسي الصحيح للجغرافية ونصيبه من التجديد وضبط نوع « جغرافية » الزهري الموجهة إلى التجار والجامعة بين العجائب والمعلومات عن البضائع والمواني في البحر الأبيض المتوسط وتقنية علي بن سعيد الدّقيقة في « بسط الأرض » وحسن الاختيار والتنسيق فيما نقله .

(2) الرحالة : في هذا الباب ذكر ابراهيم بن يعقوب الطّروطوشي ولكنه لم يوف رحلته حقها من التحليل وفاته التنبيه إلى بحث كانار (Canard) (6) القيم . ويختلف الأمر في دراسة « تحفة الألباب » و« المغرب » لأبي حامد الغرناطي إذ اعتمد كلّ الاعتماد على أبحاث فيران Ferrand وكرتشكوفسكي Kratchkovsky وديبلار Dubler فكانت المادة دسمة . أمّا أبو بكر بن العربي فقد خصّه بترجمة ضافيه واهتمّ بترتيب الرّحلة ليرز أنّ صاحب هذا الكتاب (7) أوّل من وضع الأساس لفنّ الرّحلة . ولما انتقل إلى ابن جبير أبدى إعجابه برحلته وميزاتها ولاحظ أهمية المعلومات عن البحر والسفن فكانت ملاحظته طريفة ثم قابل رحلة ابن جبير برحلة العبدري فبيّن الفروق الناشئة عن تباين مزاج الرّجلين واتجاههما (8) وأخيرا أكّد فيما يخصّ رحلات ابن الخطيب أنّها تمثل لونا آخر من الرّحلة تقلّ فوائده الجغرافية لأنّه مركّز على التصنع اللفظي ونستغرب أن لم تذكر رحلة الغزال إلى النورمان التي احتفظ لنا ابن دحية

(6) E.O.L.P. t. II p. 505-8

(7) الكتاب مفقود إلى الآن وقد اعتمد حسين مؤنس على فقرات رواها المقرئ في نفح الطيب - انظر ص 409 - 410

(8) في قائمة المراجع يذكر طبعة الجزائر دون أن ينبه إلى النقص ص 518

بنتف منها نشرها للمرة الأولى وترجمها دوزي Dosy (9) ثم أعاد نشرها Seippel (10) .

(3) من المعاجم تعرض حسين مؤنس إلى «معجم ما استعجم» للبكري ناقلاً رأي دوزي في قيمته من حيث التأليف الجغرافي (11) ، ووقف على «الروض المعطار في خبر الأقطار» لمحمد بن المنعم الصنهاجي الحنبري معتمداً في فصله على المواد الخاصة بالأندلس التي نشرها ليفي بروفنسال (Levi-Provençal) وعلى مقدمة هذا المستشرق المستفيضة وقد أهمل معجماً أندلسياً هو «آكام المرحان» لاسحاق بن حسين (12) فوقع في وهم لما عد «معجم ما استعجم» أول معجم في تاريخ التأليف الجغرافي وذلك أن إسحاق بن حسين عاش قرناً تقريباً قبل البكري .

(4) من المؤرخين اهتمت خاصة بأحمد بن محمد الرّازي وأبي عبد الله محمد بن يوسف الوراق للدور الذي لعبه في نشأة الجغرافية الأندلسية وتوجيهها . فالأول ينتقل من الجغرافية الطبيعية إلى الجغرافية الإدارية والبشرية وهي طريقة تأثر بها أبو مروان بن حيّان في تاريخه «المقتبس» وكل من مهّد لمؤلّفه بالجغرافية والثاني مزج الجغرافية بالتاريخ وهي طريقة سار عليها العذري والبكري .

(5) أمّا الأدباء فقد وقع الاختيار منهم على عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري صاحب كتاب «المسهب» وابن بشكوال وأبي الحسن

(9) Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne t. II — 1881
LXXVI - LXXXVIII ص

(10) Rerum Normannicarum fontes Arabici, Oslo 1928
ص 13 - 20 الجزء الثاني من نفس المجلد

(11) ص 129 - 131

(12) تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكرتشكوفسكي - ترجمة عثمان هاشم - ص 229 - 230
وأندري ميكال André Miquel جغرافية العالم الإسلامي الإنسانية ص 262 - 265
حقق الآكام وترجمه كودازي A. Codazzi في Rendiconti della Reale Accademia
dei Lincei - رومه 1929

علي بن سعيد وابن الخطيب واستخرج المؤلف المادّة الجغرافية من الفقرات الكثيرة التي نقلها المقرّي من المسهب ومن فقرات لابن بشكوال وردت في نفح الطيّب ولا يعرف إلى أي كتبه تنتسب وهي في ذكر أبواب قرطبة وأرباضها كما استخرجها من كتاب المغرب وخاصة من المقدمة الجغرافية المفصّلة للأندلس ومن مقدّمة الإحاطة واللمحة البدرية . وقد أحسن انتقاء النماذج لأنّها تحمل القارىء على الإعجاب أو زيادة الإعجاب بهؤلاء الأدباء لما امتازت به مادّتهم الجغرافية الطبيعية كانت أو سياسية أو اقتصادية أو طبوغرافية من معرفة جيّدة لبلدهم أو مدنهم ومن دقة في العرض .

لا يمكن طبعا أن نترقّب من الكتاب استقصاء المادّة الجغرافية في الأندلس (13) ومن صاحبه تحليلا عميقا دقيقا لكل أثر خاصّة وأنّه استعرض خمسة وعشرين علما لذا كانت الفصول تتفاوت قيمة حسب محتوى الأثر (14) وكثرة المراجع وقتلتها ولكنّ الذي أدهشنا هو أنّ حسين مؤنس أنهى كتابه بجملّة واحدة ولم يحاول في خاتمة ولو قصيرة تبويب حصيلة دراسته وخلاصة القول إنّ عمله رغم بعض الهنات مفيد يطلع القارىء على غزارة مادّة الجغرافية الأندلسية واتجاهاتها وتنوّعها ويمدّه بمصادر ومراجع كثيرة وهو تمهيد لدراسة هذه الجغرافية دراسة تبين ظروف نشأتها وتعتبّ الفنون فنّا وفنّا وكيفية تلاقحها وترسم مراحل تطوّرها وتحلل طرق العرض وتضبط خاصّة دور الأندلسيين في تاريخ الجغرافية الإسلامية .

(13) نلاحظ بهذا الصدد أن المؤلف أهمل بعض الآثار نضيف إلى المشار إليها سابقا النص الذي أعاد نشره بلا Pellat : Le Calendrie de Cordone وأن عددا كبيرا من

كتب التاريخ التي يرجح أن تبدأ بفصول جغرافية لم يعثر عليها بعد . انظر ص 21 - 25

(14) للمؤلف سعة اطلاع بجغرافية الأندلس الطبيعية وطبوغرافية المدن ومعرفة دقيقة بالمصطلحات الجغرافية الأندلسية لذا كانت المعلومات في هذه الأغراض قيمة